قضية المـــرأة!

للأستاذ زكريا إبراهيم

قضية المرأة قضية قديمة قدم العقل الإنساني نفسه ، فإن الإنسان منذ خلق ولوع بالتمييز والمفاضلة ، حريص على تعرف أوجه الخلاف والمماثلة ، وقد وجد الإنسان موضعاً للتفرقة بين المرأة والرجل ، فخلق لنفسه من ذلك مشكلة ، وكان الرجل هو المسيطر ، فتلبست المشكلة بالمرأة ، ومن ثم نشأت تلك القضية الصعبة ، « قضية المرأة » لا الرجل !

وعلى الرغم من كثرة المناقشات التي أثيرت حول المفاضلة بين الرجل والمرأة ، أو المساواة بينهما ، فإن قضية المرأة لا تزال مستعصية على الحل ، لأن وضع المشكلة نفسه ليس بالوضع الصحيح . والواقع أن كل تلك المناقشات العقيمة ، لا يمكن أن يترتب عليها إلا أن تزيد المشكلة تعقداً وتشابكاً ، لأن من شأنها أن توقف المرأة وجهاً لوجه أمام الرجل ، تناضله وتذود عن نفسها ، كأنما هي بإزاء خصم عنيد جائر !

ولكن الأمر ليس من هذا في كثير أو قليل ، فإن الصلة التي تربط بين الجنسين ، ليست صلة « تفضيل » ، وإنما هي صلة « تكميل » فكل مفاضلة بين الرجل والمرأة هي عبث لا طائل تحته ، لأن المجال الذي يعمل فيه كل منهما يختلف عن المجال الذي يعمل فيه الآخر . ولما كان الزواج هو الوحدة التي تجمع بين الجنسين ، فإن النقص الذي يوجد لدى المرأة يستحيل إلى كمال إذا اقترنت بالرجل ، والنقص الذي يوجد لدى الرجل يستحيل إلى كمال أيضاً إذا اقترن بالمرأة ، فيذهب نقصها في كماله ، ويذهب نقصه في كمالها ، ويخرج من ذلك الإنسان الكامل ! وقد أراد القديس أوغسطينوس أن يعبر عن فكرة تضافر الجنسين فقال : « لو أراد الله أن تكون المرأة حاكمة على الرجل لخلقها من رأس آدم ؛ ولو أراد لها أن تكون أسيرة له ، لخلقها من رجله ؛ ولكنه خلقها من ضلعه ، لأنه أراد أن يجعل منها شريكة للرجل ، مساوية له »[1]

بيد أن هذا لا يعني أن المرأة والرجل على حد سوى ، وإنما هو يعني أنه ليس ثمة وجه للمفاضلة بين الإثنين . فإذا استثنينا ما يرجع إلى الجنس ، قلنا إن الرجل والمرأة سواء[2] . وكل ما بين الرجل والمرأة من فرق في الناحية الجنسية ، فذلك لضرورة تحتمها الوظيفة التي ينهض بها كل في المجال الذي اختصته الطبيعة به . وهذه الضرورة قد جعلت المرأة تميل إلى التعشق الذاتي narcissime[3] والاكتفاء بالذات ، في حين جعلت الرجل يميل إلى التعشق الغيري والخروج عن الذات . فالمرأة - كما يقول فرويد - حينما يكتمل نموها وتنضج أعضاؤها الجنسية (بعد أن كانت من قبل في حالة كمون latency) يتزايد لديها الشعور بالتعشق الذاتي ، فتنزع إلى الاكتفاء بذاتها self-sufficiency وتزداد قوة هذا النزوع إذا صاحبه اكتمال في الأنوثة والجمال ، فيترتب على ذلك أن تعشق المرأة نفسها (فحسب) عشقاً يقرب في شدته من عشق الرجل لها . ولهذا نجد أن المرأة لا تريد أن تحب ، بل أن تكون محبوبة ، فإنها بطبيعتها لا تريد أن تكون طالبة ، بل أن تكون مطلوبة . وإذا تهيأ للمرأة حظ كبير من هذا « التعشق الذاتي » فإنها تكون جذابة إلى أبعد حد ، لأن التعشق الذاتي من شأنه أن يجتذب انتباه أولئك الذين تخلوا عن جزء من عشقهم الذاتي ، وراحوا يلتمسون « موضوعاً » آخر لعشقهم object-love والسر في هذه الجاذبية ، يرجع إلى أن المرأة « الرجسية »

---

(١) ارجع إلى كتاب كنث ولكر Kenneth Walker « فسيولوجية الجنس » The Physiology of Sex الفصل الثالث ص ٤٢

(٢) ارجع إلى الفصل الخامس من كتاب « إميل » Émile لجان جاك روسو .

(٣) ارجع إلى البحث الذي كتبه فرويد بعنوان On Narcissism, an Introduction

narcissistic woman[1] تكون فى العادة جميلة الخلقة (لأن فرط الجمال هو الذى يدفع إلى التعشق الذاتى) ، فضلا عن أن اكتفاءها بذاتها من شأنه أن يحيطها بهالة سحرية من الغموض المستحب الذى يزيد الرجل ولوعاً بها ! ولكن هذا لا يمنع من أن تكون هناك طائفة أخرى من النساء ، يتخذ الحب عندها شكله المعروف لدى الرجال ، فتنزع المرأة إلى البحث عن هدف من الجنس الآخر تجعله موضوعاً لحبها ؛ ويكون هذا النزوع مصحوباً بتقدير مبالغ فيه للناحية الجنسية

ويجب أن نلاحظ أن الحاجة الجنسية لدى المرأة تختلف عنها لدى الرجل ، فإن اللذة الجنسية عندها ليست غاية فى ذاتها كما هي عند الرجل ـ وإنما هى مجرد وسيلة لغاية أخرى تفوقها ، وهي الأمومة : maternity فغريزة الأمومة عند الأنثى أقوى بكثير من الغريزة الجنسية ، كما تدلنا على ذلك التجارب التى أجريت على فصائل الحيوان . وإذا كانت المرأة ـ كما يقول مارانيون Maranon ـ تشعر بميل إلى الحياة الجنسية ، فما ذلك إلا لكى تتخذ من الرجل وسيلة تحقق بها غاية الأمومة التى هى عندها كل شيء . ففى أبعد أغوار نفس المرأة ، تكمن الرغبة فى الأمومة . وهذه الرغبة القوية هى التى تصبغ بصبغتها كل حياة المرأة . أما اللذة الجنسية فهى عند المرأة بمثابة عرض مصاحب يقترن بالشعور الذى تظهره نحو ذلك الرجل الذى اختارته لكى يكون أبا لأولادها . ومن أجل ذلك فانه إذا كان الرجل قد يطلب اللذة الجنسية للذة الجنسية نفسها فان المرأة لا يمكن أن تقنع بذلك مطلقاً ، لأن كل ارتباط يتم بينها وبين الرجل ، دون أن تستتبعه ولادة طفل ، هو فى نظرها عديم الجدوى

ولما كان الحافز الجنسى عند المرأة أقل شدة منه عند الرجل فإن من اليسير على المرأة أن توجه ميلها الجنسى توجيهاً آخر . وبفضل هذه المقدرة ، تستطيع المرأة أن تضمن لنفسها العفة بجهد أيسر من الجهد الذى يحتاج إليه الرجل . فهى تستطيع بسهولة أن تجد منفذاً لحاجتها الجنسية ، وذلك بالاشتراك فى أعمال البر أو القيام ببعض المشروعات الاجتماعية أو باتخاذ بعض الأبناء الخ ولعل من دلائل ضعف الحافز الجنسى لدى المرأة بالنسبة إلى الرجل ، أن فى استطاعة المرأة بسهولة أن تصادق امرأة أخرى صداقة متينة حارة ؛ وهذه الصداقة تصطبغ فى بعض الأحيان بصبغة حب الجنس للجنس homosexaulity فتكون مظهراً لإرضاء الحاجة الجنسية عن طريق آخر ، حين لا تساعد الظروف على إيجاد المنفذ الطبيعى لهذه الحاجة

ومن ناحية أخرى فان وظيفة الأمومة قد اقتضت أن تتصف المرأة ببعض الصفات الثانوية الأخرى التى تهيء لها القيام بالمهمة المعدة لها : فالمرأة أكثر حساسية من الرجل ، وأسرع استجابة للمؤثرات الوجدانية . وهى تنظر إلى الحياة من خلال عواطفها ووجداناتها ، وكثيراً ما تهتدى عن طريق شعورها إلى حقائق لا يستطيع الرجل أن يهتدى إليها بعقله . وإذا كانت المرأة لا تستطيع أن تلحق بالرجل فى ميدان التجريد العقلى فان هذا لا يمكن أن يكون دليلاً على عجز أو قصور ، لأن العقل إذا كان يعين الرجل أحياناً على أن يحكم حكماً صحيحاً ، فانه أيضاً كثيراً ما يجنح به عن جادة الصواب . وليس من شك فى أن المرأة إذا وضعت فى موضع القضاء ، فانها لن تصدر أحكامها ، إلا وفقاً لما يمليه عليها قلبها وشعورها ، ولكن « هل يمكن أن تكون هناك طريقة فى الحكم خير من تلك التى نحكم فيها على أفعال الآخرين ، بمقتضى العقل المقترن بالعاطفة » ؟[2]

(للحديث بقية)

زكريا ابراهيم

(١) هذه التسمية هى فى الأصل نسبة إلى « نرجس » Narcisse الذى كان مولعاً بشكله الجميل « كما تقول الأساطير » فكان يديم النظر إلى صورته وقد انعكست على صفحة غدير رائق صاف . وقد عاقبته الآلهة بأن حولته إلى الزهرة المعروفة الآن باسمه ، وهى زهرة النرجس !

(١) هذه العبارة لمارانيون Maranon صاحب كتاب « تطور الجنس » Evolution of Sex ، وهو من أحسن الكتب التى وضعت فى مسألة الجنس وعبارته المذكورة يقصد بها ـ كما هو واضح ـ أن المرأة بحكم كونها إنساناً تتصف بالعقل ، وبحكم كونها امرأة تتصف بالعاطفة فهل يمكن أن يكون ثمة حكم أفضل من حكم جمع بين العقل والعاطفة ؟